رسائل مشفّرة

وتين.. عمر

سيدرا عجاج

٢٠٢٢ / ١٤٤٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

باسمك اللهم أبدأ، أسألك توفيقاً من عندك يسهل خطاي، والحمد لك على ما فات وعلى ما هو آت!

هب لي يا الله من لدنك علماً وتوفيقاً وتسهيلا وتيسيراً، لا حاجة لي عند غيرك فبث في روحي يا الله روح العزيمة والثبات، وسهل لي طريقي ولا تجعل به ما يصعب علي تجاوزه!

أرسل لي يا الله قوة من عندك تعينني على السير في درب أحلامي، وكن معي يا رب!

لو طالت المسافات، وبعدتنا الأيام

ما بينا ألف حاجة، تبين الاهتمام!

مين قال إن التلاقي، لقى وسلام بالإيد،

في قلوب بتحس فينا، لو حتى من بعيد!

دايماً جوانا كلام، وقصص محتاجة تتقال

وناس غاليين علينا، ما بيروحوش من البال!

ده مافيش للدنيا معنى، لو ما انتش لاقي ليك

حد أما تغيب عليه، يفضل يسأل عليك!

ودي سنة الحياة، نبعد نتوه ونمشي، في مليون اتجاه!

ودي سنة الحياة، الغالي بيفضل غالي، وانت بقلبك معاه

نتمنى لحظة، تجمعنا بحباينا

لا بعاد ولا غربة، ولا شوق في قلوبنا،

دا لقانا بمعاد!

أيمن بهجت قمر

إهداء..

إليك، نعم أنت..

لا تلتفت، أنا أقصدك أنت،

لا أحد سواك!

وحدك من تعلم مقصدي،

وحدك تعلم ما أدرك وما أعني،

وحدك تعلم ما أريد وما أُخفي،

وهذا لك، لك وحدك!

مقدمة

لو كنت شهراً سأكون أيلول، لعلّ ريحي تجرّد الحزين من حزنه كما تجرّد الأشجار من أوراقها!

لو كنت يوماً، سأكون يوم تحقيق الأحلام، لعلّ أحلام المنتظرين تتحقق!

لو كنت فصلاً سأكون الرّبيع، لعلّي أزيد من نشوة وزهوِ أعمارٍ جديدة تزهر به أرواح الآخرين!

لو كنت لوناً سأكون الأزرق، لعلّ صفائي يُضفي على الكون شيئاً من الأمن والسّلام!

لو كنت شيئاً سأكون رواية سعيدة، لعلّ قارئها ينعم بشيء من السّعادة والاطمئنان!

لو كنت لغة سأكون العربيّة، فكم سأكون فخراً لأحدهم يوماً، وهذا جُلّ ما أتمنى!

لو كنت في الفضاء سأكون نجمة، لعلّي أكون صديقاً لأحد يُسامر النّجوم، فأستمع لحزنه وشكواه، لعلّي أخفف عليه من وطأة تفكيره وألمه!

لو كنت شعوراً، سأكون شعور الأمل بالبقاء، لعلّي بقيت مع أحدهم دون شعوره بالخيبة..

ولكنت أيضاً شعور الاهتمام، لما جعلت أحداً يعاني من قلّته!

لو كنت ساعة، سأكون الحادية عشر والإحدى عشرة دقيقة، لعلّي أجعل أماني الحالمين تتحقق، ولما كنت تجاهلت أمنية واحدة!

لو كنت رقماً سأكون اللانهاية، فهناك من يحتاج الفرص، وسأكون العدد اللانهائي من الفرص لمن احتاج!

لو كنت من الطّبيعة، سأكون ياسمينة،

لعلّ عطري ينشر عبقه في زقاق الأسى فينتشي قاطنوه!

لو كنتُ أملاً لما انقطعت، لعلّي أكون سبباً في نجاة أحدهم!

لو كنت معطفاً لما اهترأت، لعلّي أعطي الدفئ لمن احتاجه!

ولكنني ولشدّ ما أتمنى أن أكون فخراً، ودفئاً، وملجئاً، أمناً وأماناً،

لكم أتمنى أن أكون سبباً في سعادة أحدهم،

لا سبب أذية!

لشد ما أتمنى أن أكون ذكرى يبقى أريجها فوّاحاً على مدى الزّمان..!

وآهٍ لو كان بإمكاني أن أطير..

لكنت فعلت الكثير والكثير، لكنت حملت بيديّ سلة حب وفرح، وباقات من الأمل، ونشرتها على كلّ بقاع الأرض.

لست أتمنّى سوى أن أكون شيئاً يُذكر بالحبّ والخير، أريد أن أترك أثراً طيّباً ورائي، لا أذى ونُدبًا لا تُمحى، بل أفراحاً وذكريات تُخلّد وتُنقَش في القلوب، لتحيا بها!

ليتني أكون، ليتني وليتني..

ليتني لا أؤذي،

ليتني مصدر سعادة، فقط سعادة..

أيُّها القارئ

مرحباً بك في عالمي وبين فوضى كلامي

ذاتك المبعثرة التي أضعتها يوماً ما، ربما تجدها هنا

ربما تَجِدُ نفسك!

تُلقّن ذاتك تعابيراً كاذبة، لتكمل الأكذوبة الأكبر ألا وهي "الحياة".

سأُعرفّك بنفسي أولاً،

أنا سيّدة ملعقة، مِغرَفةُ الكلام، أنا وِعاءُ الأحلامِ البالية، وأكوابٌ مُترَعة بفيالِقِ البُؤس، أنا مِنضَدَةٌ لكؤوسِ الخمر، وأرجلٌ تَسنِدُ مجالِسَ الثّملين..

بجوفي أكنُّ حكايا لروحٍ هزيلة، تهرُبُ من عَجَفِ السّنين، تتوسّطُ أنفاقَ النّورِ والدّيجور!

أنا أغنيةٌ ضاعَ لَحنُها وتقطَّعَت أوصالُ أوتارِها، أنا سجينةُ أفكاري والأوهام، أسيرةُ الألفِ وخمسونَ قضيباً فولاذيّاً.

ضاعَت قضيّتي على إحدى حوافّ تلكَ المحكمة اللعينة،

التي أَودَت بموتِ الحقيقة مع ذاكَ القاضي..

أنا ابنةُ السَّبعينَ خريفاً، أنا نبتةٌ زُرِعَت بقاعٍ مهجور، لا حياةَ فيهِ ولا أُنس، وحيدةُ الخمسونَ ليلةً، صاحِبَة حادِثة ساعَة الصّفر، مُترنِّحة من شَعثِ الأفكار، متوجِّسة من استفاقَةِ الحنينِ بداخلي، بترتُ قَلبي وقطّعتُ شرايينَ الرّوح، أجهضتُ مُقلتايَ من عتبَةِ الإنتظار، والأمرُ برمَّتهِ باتَ محسوماً..

حَشرَجة وغرْغَرة تتَردَدُ في نَفسي، أصواتٌ مُزعجة تسكُن لُبي وتلتَهِمُ جميعَ أحشائي، أرواحٌ عارية مُتَستّرة تتَسلَّلُ إلى أعماقي كالأُفعوان، تلدَغُني وتَمضي، وأنا لستُ سِوى فراشةٌ بتَرَ الظّلامُ جناحَيها.

أنا.. والأنا أنينٌ يأِنُّ ليلاً، يُطالِبُ بعودةِ الاستقرارِ الرُّوحي.

أنتَ.. وما أنتَ إلا أكوامٌ مِنَ القَش، ضاعَت بِها إبرةٌ لا زالَ يؤذيكَ وَخزُها، نحنُ.. وما نحنُ إلا رمادٌ ضاعَ بين رُكام الحياةِ الرّاكد.

في مرحلة ما، ستُصبح عبئاً ثقيلاً حتى على نفسك، سترى أنك تكبدت عناء التحمل لوحدك، ولسنينٍ طويلة!

ستقطع طريقاً شاقّاً تلقى فيه من الألم والذعر الكثير، ستشغل الثقوب والأحلام البالية حيّزاً كبيراً من حياتك، لا تقلق جميعها ستنتهي لكن بعد أن تنتهي أنت!

ستستمر بترميم نفسك بينما أنت تعلم أن لا نفع مما تقوم به، فقط ترثي نفسك بنفسك، لتقنع ذاتك بأن كل شيء سيكون بخير، إلاك أنت، أنت الشخص الوحيد الذي لن تكون بخير!

ومع ذلك ستستمر بالمحاولة، ستبتسم وكأن شيئاً لم يكن، بينما كل شيء كان..

ستواجه الكثير من الصعاب، سوف تجزم أنك تخطيتها..

لتبرهن لهم أنك قوياً، ولكي تجتاز مرحلة ما بطريقة ما،

لكن بداخلك أنت مهزوم حد الانهيار!

ثم يا عزيزي عمر، بدايةً أنا أعتذر لك عمّ بدر منّي، لقد كنت قاسية وأنانية بعض الشيء، لكن البعد كان أمر لا محال له من الحدوث، فالأقدار أحياناً تأتينا بما لا نريده!

كنت أحسب الأمر هيناً وسيزول، لم أكن أعلم بأنني سأمر بأكثر الفترات قسوة!

يُسعدني اليوم أن أقول لك أنني نجوت أخيراً، لكنني نجوت بعدما سُلبتُ منك،

يُسعدني أنني عدت أكتب إليك من جديد، وأنني بتُّ أجد سبباً وجيهاً يدفعني للكتابة بروحٍ قوية لا تهدمها أية تأثيرات!

لكن ما يتعبني ويرهقني حقاً هو أن رسائلي لا تملك وجهةً تذهب إليها!

هناك حديث مطّول بيننا لا ولن ينقطع، أحادثك كل يوم، أحاكي طيفك، وأسامر عينيك بين نجوم ليلي!

الأمر الذي باغتنا ها هو اليوم قد انتهى، وقد بدا لي أن كل شيء يصاب بالإحباط، إلا قلوبنا فهي تنهار!

فالآن لست أرجو منك سوى أن تعي تماماً ما أعني، أرجو منك أن تحتوي حزني، أن تدرك معنى خوفي وقلقي، وما أريده أكثر، هو أن تتفهم سبب إقدامي على ما لم يرضيك!

ثم إني اكتشفت مؤخراً أنني لا أستطيع الحفاظ على ما لدي، وببساطة كنت أفقد كل شيء، ليس لضعف إيماني وقلة عزيمتي وإصراري، بل لأن الأقدار تفرض علينا ما تريده وأنا رضيت، وقدمت استسلامي ورضوخي للقدر..

ولأنني رضيت، والشعور بالرضا هو أعظم انتصار!

تسألني لماذا أكتب؟!

فأجيبك،

لأن بداخلي ما لا يُحكى،

وأُكمل،

لأكمل بداخلي قصة مُنفاة من واقعي!

وأُنهي،

كل شيء كان يزداد سوءاً إلا الكتابة، كانت الألطف والأقرب والأحن!

فإن أبسط أمنية قد يتمناها الكاتب

كتاب يجد به أدق تفاصيله، أو إحدى أجزاء قصته المفقودة والتي لم

يقدر حتى الآن على التعبير عنها، أو حتى يضم حزنه الذي عجز

عن احتواءه لوهنه وقلة حيلته..

أبسط متطلباته كتاب يشبهه ويبقى معه يداريه في وقت حزنه،

كتاب يفي بالغرض!

(١)

عزيزي البعيد القريب،

أحياناً نتوقف عن السير في الحياة قليلاً ثم نستمر، لكن ماذا وإن توقفنا وللأبد؟!

ماذا وإن فقدنا كل ما نحب ومن نحب؟!

ماذا عن عثراتنا ولو دامت؟!

ماذا لو تفاقم الأمر وفاق حدّ الإدراك، وأصبح أكبر من قدرتنا الاستيعابية؟!

ماذا لو تخلى عنا الأمل، ودفننا الإصرار في قعر الهزيمة؟!

إن أصعب رحلة ستمرّ بها هي أن تسير لوحدك في طريق ليست لك،

وأبشع الحروب هي تلك التي تخوضها وتكون خسارتك بها فادحة كقلبك،

وأقبح الخيبات هي تلك التي تأتي من روح خسرت لأجلها قلبك في تلك الحرب!

أن تطمع ببزوغ فجرك من جديد وحصولك على فرصة المقاومة والدفاع عن مكنوزاتك هو أمر يدل على قوتك،

لكن إن بزغ الفجر، ونجحت مقاومتك وفي نهاية المطاف تجد غنيمتك قد أصبحت ملكاً لأحد غيرك، فهذه خسارة لم يشهدها تاريخ المقاومين..!

(٢)

عزيزي البعيد القريب،

لقد كتبت رسالتين،

الأولى كانت لي،

كتبتها بالنيابة عنّي إلي، شكرت بها نفسي على صنيعها معي!

أما الثانية يا عزيزي فقد كانت لك، والآن ها أنا أكملها، وستكون الأخيرة.

لكن دعني في البداية أتقدم برسالة شكر لمن كان معي منذ بداية الطريق الشّاقة، دعني أميل لكتابة شيء مختلف نوعاً ما..

شكراً لمرآتي التي تكبّدت عناء التحمل في النظر إلى وجهي كل يوم وكل لحظة، في حين أن الجميع سئم منه، شكراً لشرفتي التي لم تُضع أحاديثي لها هباءً، شكراً لوسادتي التي خبأت دموعي الليلية ولم

تُفصح عن سرّها لأحد، لجدران غرفتي التي حافظت على ضجيج روحي وصرخاتي التي أخشى أن يستمع إليها أحد.

شكراً للنوم، للأحلام البالية، شكراً للوقت، للكتابة، لأقلامي وأوراقي، شكراً لروحي..

بفضلها لم أكن مضطرّة لأن أبحث عن نفسي كل مرة!

تعددت العناوين بمخيلتي، فلم أدري كيف كنت سأبدأها، لكن وعلى أي حال فأنا كتبت ما كتبته..

لا يهم، فلندخل في صلب الموضوع!

أتراك لا زلت حزيناً، أترى تلك المسافة البعيدة التي تفصلنا، أنا أحبك بقدرها وأكثر حتى!

لا أريد أن تكون حزيناً بسببي، لا أريد أن أرحل عن هذه العالم وبقلبك ذرة يأس أنا سببها، لقد مرّت أيام عصيبة صدقني، لم يكن الأمر سهلاً علي، لم يكن هيّناً علي أن أجتاز كل ما حصل ولوحدي، لقد استسلمت أخيراً يا عزيزي!

كنت بحاجة للمزيد من الوقت، لقد انتظرت طويلاً ولم يتغيّر شيء،

أنت رحلتَ ، ولم أعد أعلم أي شيء بعدها،

وانقلبت الموازين،

فرحتُ أكتب، وأكتب، وأكتب!

كم هي بعيدة المسافة بيننا، كم أن الطريق إليك أصبحت طويلة، يا إلهي، مجرد التفكير بالأمر يخيفني!

أشعر وكأن المسافة تزداد يوماً بعد يوم، وحبي لك يكبر أكثر فأكثر، هنا في عالمي أصبح كل شيء مختلف، أقصد..

كل شيء أصبح باهتاً، لم أعد أرى بعد رحيلك شيئاً مزهر، أو مكاناً تملؤه البهجة، بل على العكس تماماً!

كلانا نلقي اللوم على الآخر،

لا ذنب لنا كلينا صدقني،

لم نقترف خطئاً يجعلنا ننسى، أو نتناسى أياماً قضيناها سوياً، ليس بوسعنا الإنكار!

أخبرني أنت، هل يمكنك أن تنكر حنينك إلي، هل تستطيع أن تخفي شوقك وحبك الذي لا زال حياً بك لأجلي، هل يمكنك أن تمنع رغبتك في الكتابة إلي ولو عتباً!

هل حاولت التخلص من شعورك القبيح ذاك بشأن المسافة الطويلة بيننا،

أنا أعلم أنك تريد أن تتنصل من ذاك الشعور الغريب والمؤذي الذي يعتريك تجاهي، أنت لا تحمل حقداً بقلبك تجاهي، لكنك تتظاهر بذلك، وأعلم تماماً أنك تريد أن تتنصل من هذه الظواهر الغريبة، أخبرني،

أجل أخبرني، أقسم لك أنني سأستمع إليك،

أنا أعلم جيداً أنك تريد أن تخبرني بأنك لا زلت تحبني كما سأفعل، لا زلت أحتفظ بذكراك، أجل!

لا يمكن لكلينا إنكار ما تكنّه أرواحنا من مشاعر!

أعلم أنه ليس بوسعك أن تكبت لهفتك لرؤيتي، وشوقك للحديث إلي، ورغبتك المفرطة للقائي!

أعلم كل ذلك!

لا أخفيك سراً، لقد اشتقت إليك، وللحظاتي بقربك، اشتقت حقاً، لكن ليس علينا إظهار ما هو منفور من حولنا!

هناك أمورٌ تحدث دون علمنا، أو دون إرادتنا، لكن لعلّ بها ما لا نعلمه من خير!

لعلّه خير!

(٣)

عزيزي البعيد القريب،

حسناً..

دعنا نغضّ النّظر قليلاً عمّا فات،

فلنقل أنها كانت معركة عصيبة وقد نجوتَ منها بيدقاً شُجاعاً،

أخبرني الآن هل أدركت أنك كنتَ مخطئاً في العديد من الخطوات التي خطوتها؟!

أعتقد أنك أصبحت الآن على يقين تام بأنك كنت متسرّعاً بعض الشيء، وقد كنت لا تفكر ملياً قبل أن تُقدم على خوض خطوة ما.

من الواضح الآن أنك بدأت تستوعب ما حصل، رتبت أفكارك وفق تسلسلها الزمني وتيقنت جيداً أن لكل فعل ردة فعل، وأفعالك كانت ترمي عليك ردود فعل قوية، كانت تفوق مدى احتمالك!

لا يوجد دافع الآن يجعلك تشعر بالندم، هذا ما لا تعتقده أنت، "أمر تشكك في معطياته"، لا تفكر في الأمر كثيراً، لا تحجمه، لا تجعله يأخذ كماً كبيراً من طاقتك وقدرتك، وضع حدوداً لكل شيء، فلا شيء يستحق.

أنت خُلقتَ لك ولأحلامك وللشخص الذي يستحقك، أنت وحدك من تستحق أن تكون سعيداً لأجلك، ثم لأحلامك، أحلامك هي التي تستحق أن تبذل من أجلها مجهوداً وتسعى للوصول إليها، وأخيراً من أجل ذلك الشخص الذي قدم لك كل ما يملك مقابل أن يحصل عليك!

لا أحد، صدقني لا أحد يستحق أن تستنزف من أجله كل طاقتك سوى من يجعلك سعيداً،

من أجل سعادتك افعل ما تشاء،

لا تبرر لأحد أفعالك، فلا أحد سيدرك ما الذي بداخلك،

أزح قوقعة الأفكار التي تغطي دماغك، وانفض غبار التهيؤات والشكوك الغريبة!

دعكَ من الماضي وكُن ابن حاضرك، فأنت لك وليس لأحد!

أنا أعلم ما الذي تحتاجه، أعلم جيداً ما هو الأمر الذي يؤذيك،

لكنني أعلم أيضاً أنه بوسعك أن تحارب وتنجو، أنت أقوى من أن تخسر في معركة ما،

أنا أثق بقدرتك على التخطي واجتياز كل أمر صعب!

أعلم أن داخلك يضج بالأحاديث التي لا أحد يعرفها، بداخلك عالم آخر مختلف تماماً عن عالم البشر،

بداخلك الكثير والكثير من الأسباب والتبريرات،

بداخلك رغبة عارمة لأن يستمع إليك أحد،

فلك أن تحزن، لك أن تغضب،

لك أن تبكي وتصرخ،

لك أن تنطفئ وتنهار وقتما شئت، لا شأن لأحد بك،

لكنك قوي بما فيه الكفاية لتهزم كل هذا،

فلا أحد له القدرة على القيام بما أنت قادر عليه،

وشتان ما بين هذا وذاك، ولك حريّة الاختيار!

(٤)

عزيزي البعيد القريب،

لا تحزن..

هناك من يقترف الأخطاء، هناك من يفعل الصواب!

لكن..

هناك من يقوم بأمور من أجلك، ستظن في البداية أنه يقصد أذيتك، ستظن أنه قام بالأمر متعمداً كسرك!

سترى بفعلته أنه قد خذلك،

ليس عليك تقييم الأمور دون فهم الأسباب!

هناك من يؤذيك لأجلك، شخص واحد فقط قد تظنه أذاك لكنه من الداخل لا يتمنى لك سوى أن تكون سعيداً!

قد تراه رحل، أو سلبك شيئاً مما تملك، أو، أو، أو..

قد تراه أذاك بأي طريقة، لكنه لم يؤذيك، هو فقط يريدك أن تكون سعيداً،

كُن سعيداً لأجله، كُن بخير لأجله ولا تحزن!

ستكونُ بخير، أنت برعاية دعائه لك!

كل شخص منّا في هذه الحياة يجبر نفسه على القيام بما لا يرضيه لإرضاء غيره، كل شخص منا يُقحم نفسه في أمور أكبر منه جهداً وعمراً، كل شخص منا يمتلك أسبابه الخاصة التي دفعته لأن يضحي بأغلى ما يملك!

تراحموا فيما بينكم، هكذا وصّى الرسول صلّ الله عليه وسلّم، تفاهموا، ولا تتخاصموا،

كل ما في الأمر أن الأمر فاق مدى التوقعات، وانقلبت الموازين، ولم تأتي الريح كما شاءت السفن!

وأنت، أجل أنت الذي تقرأ، لا أحد غيرك،لا تحزن!

(٥)

عزيزي البعيد القريب،

إن قرأت ثرثرتي البالية هذه يوماً فسأكون لك من الشاكرين،
وإن رحلت يوماً آمل أن تضل تذكرني، آمل أن تبقيني في قلبك حتى وإن غادرت الحياة يوماً!
فإن رحلت..
سأترك لك مع الأطيار سلاماً،
سأقطف لك الأزهار التي تحب وأتركها مع رسائلي القديمة في مكان تعرفه أنت!
سأخبر الأشجار بأسراري لتخبرك إياها ولكم آمل لو أنها تفعل ذلك،
سأترك لك عند أرصفة الأمل نظراتي وحسرتي ولوعتي ولهفتي وشوقي،
سأضع لك قبلة واحدة عند كل رصيف مررنا من عنده يوماً،
وعناقاً بجانب كل زهرة ياسمين عند شجرتي المفضلة، وكل زهرة تقطفها بعد رحيلي، ستلقى بها عناقاً!

مهما طال بقائي فسوف أرحل يوماً، وإن كان لنا لقاء آخر فحتماً سنلتقي قبل رحيلي!

ها هو الوقت يمضي،

الأيام توالت وأصبحت أسابيعاً فأشهراً،

تغلبت علينا عقارب الوقت، مضت رغماً عني وعنك، وانقضت دون أن نلتقي،

لقد طال الشتاء هذا العام، أتوق لربيع ما!

لكم خفت يا عزيزي أن يفتر شوقك إلي، لكم خفت من المسافات أن تسلبنا حق اللقاء من جديد، لقد هرمت فجأة، كبرت مائة وعشرون خريفاً دفعةً واحدة،

كنت أبكي بشكل مخيف، مخيف جداً، اشتقت إليك بطريقة حتى أنا كنت أجهلها، كنت لا أدرك العواقب في استمراري على تلك الحال، كنت أرنو للقياك بأي شكل من الأشكال.

كانت الليالي الأولى تمر ببطئ شديد، كنت أشعر بطولها وكأنها صخور تندلع على صدري فتخنقني وتُربكني،

كنت أشعر بدوار شديد يُثقلني ويُعجزني!

كنت أشعر بلعثمة كبيرة تسيطر علي، شعرت بسوء في التعبير وعدم القدرة على الكلام!

كان رحيلك المفاجئ، أقصد غيابي المُباغت هو بمثابة صدمة ذات تأثير بالغ قطع أوصالي وشتت ثباتي وزادني تيهاً فوق تيهي،

بدأ الشوق يتسلل إلى أعماقي والشك يعتريني، بِتُّ أشعر وكأنني مجهول الهوية في إحدى شوارع المدينة المظلمة، بلا دليل، لا أدرك الوجهة التي يتوجب علي السير بها!

لا أدرك شيء، من أنا، أين أنا، لا شيء، حتماً لا شيء.

(٦)

عزيزي البعيد القريب،

كل الذين كنت أعرفهم، بِتُّ أجزم الآن أنني لا أعرف أحداً منهم، كل الأعذار باتت كاذبة، والعذر أقبح من الذنب!

ولا شيء كان أقبح من المسافات لدي، كانت الحواجر بيننا مخيفة، فقد تشكّلت بشكل مريع، مريع جداً!

المسافات يا عزيزي لا تحترم القوانين ولا تعي شيئاً من احترام وجود الروابط الوثيقة وأوصال المحبة، كانت تأتي مباغتة القلوب فتكسر و تهدم جسور العلاقات المتينة، تُيتم الأرواح دون شفقة، تحل محلاً ليس لها!

دائماً هي المسافة مؤلمة للحد الذي نعجز عن إدراكه والوصول إلى معرفته، تأتي بلا استئذان، بلا ميعاد، بلا وقت محدد، تدمر، وتهدم ما بنيناه، فلو كانت المسافة رجلاً لقتلته!

فلكم كنت أتمنى لو أنك قريب، فتلك فلسفة الغياب والنتائج التي توصل إليها الآخرون حول أن الغياب يزيد المحبين حباً، هي أمور لا

تتوافق مع المبادئ التي تأسس عليها تفكيري، وتعاكس بنية عقليتي تماماً..

فالغياب لا يزيد الحب بقدر ما يزيد الشوق!

فقد أرهقني هذا الأمر، وأتعبتني تلك النظريات والترهات البالية، لم تُبقي لي طاقة لتحمل الأيام القادمة التي ستخلو منك،

كم أود أن نلتقي..!

فلا أحد كان يعلم كيف كنت ألتقي بك كلما حرّضني الشوق على فعل المزيد والمزيد من أجلك،

لا أحد كان يعرف كيف كنت أعانقك كلما أردت ذلك،

لا أحد يعرف كيف كنت أشتاق إليك!

عانقتك مرة حين كانت تمطر، في الليلة الثانية بعد آخر حديث دار بيننا،

حين سمعت صوت رشقات المطر فخرجت مسرعة، وقفت تحت المطر وجعلت نفسي حرة طليقة تحت سيطرة المطر!

عانقت يدي يديك ذات مرة حين ألفيتني صرت وحيدة في إحدى الليالي الباردة حتى غفوت، اشتقت إليك في الثالث من من كانون!

وحين وقع المطر مرة أخرى، اشتقت إليك حين داهمني الخوف ذات مرة في الصباح، وحين غربت الشمس وخشيت ألا أستيقظ مرة أخرى كي أراك،

فكنت كل مرة أكتب على قصاصة صغيرة من الورق قبل نومي:

"إن لم أستيقظ في الصباح التالي فاعلم أنني مشتاق إليك كثيراً، وأحبك أكثر!"

عانقتك بين نصوصي وأشعاري القديمة، حين غرقنا سوياً في بحورها،

رأيتك مرة..

بل مرات حين كنت نائمة،

فقد ظهرت لي فجأة، كان لقاءً غريباً يدعى حلم،

ذاك الذي لا يدوم لأكثر من ثوان معدودة!

عانقتك حين كنت خائفة وهزيلة، كطفلة صغيرة، حين كنت ضعيفة لا أقوى على مواجهة أي شيء في هذه الحياة،

عانقتك حين أتيتني طيفاً، زارني لمجرد أنني تمنيت رؤيته، عانقتك حلماً زائلاً، تمنيته حقيقة دائمة!

لا حيلة لدي ولا وقوة سوى البكاء تارة، والكتابة تارة أخرى، كانت الكتابة تخفف علي من وطأة تعبي وحزني قليلاً!

وقد مرّ أيلول هذا العام فأودع عندي دموعاً ورحل..

وغيبته قد طالت، لا زلت أنتظر على أمل عودته، فلم يعد بوسعي إخفاء تلك الدموع، انتظرت نيسان فلم يأت هو الآخر،

فلست أدري أين سأخبئ تلك الدموع، أخاف أن يحسبها الرائي إن انهمرت أنها لي!

ولا زلت أنتظر، لا أيلول عاد، ولا نيسان جاء!

(٧)

عزيزي البعيد القريب،

أيقنت جيداً معنى أن يفقد الشخص ما قدّم لأجله حياته وما فيها من راحة،

عرفت طعماً آخراً للخسارة والحسرة عليها،

فليس من رأى كمن سمع!

الواقع يبقى أمر من أن يتم تصويره ببضعة أسطر قد تشوبها بعض الشكوك أو مساوئ الفهم!

بعض الكلمات تبقى عالقة تتأرجح على حوافّ القلب تخشى أن يبوح عن سرّها اللسان!

لكن..

من الأفضل أحياناً أن نكون مع أنفسنا لبعض الوقت دون رقابة من أحد،

أن نتحفظ على ما نملك من أسرار!

لنا الحق بكتم ما نريد،

الأمور السرية مُريحة في بعض الأحيان!

وربما الأفضل أن نبتعد عن البشر كي نحظى بقسط من الراحة،

ولا نكلف أنفسنا عناء الاستماع لثرثراتهم و ترهاتهم البالية!

قد نحاول النسيان لكن لا نستطيع، فقط نستمر في السير على أمل بأن القادم أفضل،

فنُجبر أحياناً على تقمص شخصيات أخرى غير التي هي علينا،

ذلك لأننا لا نريد أن نظهر للآخرين أننا تأذينا من هذه الحياة!

نخوض صراعات مع الحياة أنفسنا فتنتهي بهزيمتنا، ثم تلك الصراعات الأقوى نخوضها مع أنفسنا، هي الأصعب على الإطلاق، فلا ندري كيف ستنتهي،

ليس معروف نهايتنا!

نستمر على ما نحن عليه ونكتفي بالصمت ونتظاهر بالهدوء،

لكن بداخلنا صراع لا ينتهي، نكمل حياتنا على هذه الحال، لنرى ما هي النهاية لا أكثر.

(٨)

عزيزي البعيد القريب،

بعض الكلمات تختصر أحاديثاً طويلة ومشاعر مختلفة،

بل هي تختصر أحياناً عناء المسافات الطويلة،

بعض الأحيان نكتفي بكتابة ما قل ودل، فهناك من يدرك مغزى أحاديثنا من الكلمات الأولى!

دائماً هناك كلمة واحدة تختصر كل شيء، نظرة واحدة توضح كل شيء، وشخص واحد فقط يختصر الكون بأكمله!

هناك الكثير والكثير من الذكريات والأيام الجميلة، عشناها وأصبحت من الماضي..

نكون أحياناً مجبرين على أن نعود بأرواحنا إلى تلك الذكريات التي لا تُفارق أخيلتنا..

والآن نحن عاجزون عن فعل أي شيء،

أحياء بلا أرواح، لأن أرواحنا تمكث مع ذكرياتنا في ذلك الماضي،

تاقت الأرواح شوقاً لذلك الماضي!

هناك ما هو عالق بداخلنا وعاجز عن الصمود،

نحتاج للمزيد من الوقت، الكثير من الهدوء، فالفوضى تعمّ حياتنا!

تعطّلت أخيلتنا، كل شيء مرّ بلمح البصر، لم نكن نتوقع حدوث كل هذه الأشياء،

قلوبنا هَرِمَت، وأرواحنا عَجزت، وأفكارنا تشتَّتت، والماضي لا يزال عالقاً في أذهاننا، حتى أنه جهلنا كيف سيكون المستقبل، أو هل يا ترى سيكون هناك مستقبل؟!

نحن لا ندري،

لا ندري شيئاً، تغيّرت حياتنا وقُلبت رأساً على عقب، لم نعد كما كُنا في السابق وكل شيء أصبح مرهوناً بأمر القدر،

في هذه الحياة شيئاً ما يسير عكس ما نحن نريد،

تسرق الأقدار منا كل ما نحبه ونتعلق به، وتستمر الحياة على هذه الحال، تهدينا أشخاصاً وتأخذهم منا بسهولة، لكنها تترك لنا ورائهم جرحاً عميقاً..

لا ولن يُشفى أبداً!

نحن يا عزيزي لسنا أقوياء بما فيه الكفاية،

نحن لسنا سوى أغصاناً صغيرة من الورد، لم نعرف للحياة طعم بعد..

لم نُصبح جذوعاً قوية، لقد بُترنا من الشجرة الأم ورُمينا أشلاءً ولم نجد أحداً يضعنا في كأس ماء!

ونحن لا نزال ننتظر من يحتوينا حتى ذبلنا، وانتهى بنا الأمر هكذا!

فلم نعتد قط على هذه الحال التي ألمّت بنا،

لم نعتد قط على أن نكون عبئاً ثقيلاً على أحدهم،

فلا أحد يعلم كيف لشخص ما قرر أن يتجاوز أمر وهو عالق به، أمر أقسم أنه نجا منه وهو غارق فيه، يدّعي أنه بقمة الثبات وفي الحقيقة أنه في قاع الانهيار!

جميعنا يا عزيزي نحتاج إلى شخص يقف معه في هذه الأيام العصيبة،

لا أحد منا يقوى على مواجهة الحياة لوحده، فلنتصالح مع أنفسنا ومع الآخرين، فقد نحزن كثيراً ونتغير، قد ينفد صبرنا بسبب الأحداث الأخيرة التي مرّت بنا، قد يغيب الأمل فينا، قد نخسر الكثير، قد نُصبح وحيدين، وقد نُصاب بالإحباط لأن ما جرى لم يكن مروره بالأمر الهيّن،

لم تأتي الحياة على مزاج أحد!

أتعلم..؟!

نحن في عالم تعيس جداً وبائس، لا مجال فيه للأحلام، لا مجال فيه للحياة، لا مجال فيه لأمثالنا،

فمن الواضح جداً أن قانون تحقيق الأمنيات لا يشملنا،

وكأن الأفراح أموراً لا تعنينا!

(٩)

عزيزي البعيد القريب،

ذات مرة كتبت لك على ورقة قديمة،

مائلٌ لونها للاصفرار، خبأتها بعد أن قبلتها واحتضنتها بدموعي،

كنت أبث لك شكواي، فكتبت ودموعي تنهمر..

"أوصالي تتقطع، قلبي يخفق بقوّة، أشعر بألم في الأبهرين..

أشعر بحرقة تكوي صدري،

وألم يتولى السيطرة على كامل أعضائي،

صداع مريع جداً يتبعه دوار شديد،

يداي ترتعشان، وعيناي تُمطران من جديد،

أشعر بلعثمة كبيرة،

شفتاي ترتجفان، قوقعة من الأفكار تغطي دماغي،

غيمة سوداء بدأت تتغطى بها أجفاني،

رموشي ملتهبة من حرّ الدمع، الشوق من جديد، الشوق يا عزيزي،

الأمر الذي لطالما هزمني!"

لكنني مللت والصبر ملّني،

والدرب الطويل علّني،

وعن كل حزن وبؤس لا أعلم أين أدير وجهي،

قالو:

"الوداع في الحب صعب، والأصعب أن ينتهي دون كلمة وداع".

وأنا أقول:

الأصعب من كل هذا، هو أن ينتهي الحب ولا ينتهي!".

أن لا يكون هناك وداع ولا نقاشات رسمية باسم الوداع، أن يبقى

الطرفين عالقين في منتصف كل شيء،

أصعب ما في الحب هو الغياب المفاجئ، تبقى القلوب على اتصال،

لكن فعلياً الغياب موجود!

الوقت يمرّ بسرعة، لكن الليالي بطيئة،

أرى كل شيء بوضوح، لكن بعض اللحظات مشوشة،

الرتابة تملأ المكان وكل شيء منظم، ألا أن بعض الأمور مبعثرة،

أرى كل شيء يقصُر،

إلا المسافة لا زال طولها في ازدياد،

الأيام بطبعها قاسية، لكنها تقسو الآن أكثر من اللازم!

(١٠)

عزيزي البعيد القريب،

ليت لي غيمة كلما ضاق صدري غسلته بها،

كان عاماً مليئاً بالمطر والحزن،

عاماً مليئاً بالمطر والدموع!

سيأتي يوم وستكون فيه قصتنا هذه ذكرى تُروى!

ربما سنلتقي يوماً، بإحدى المقاهي، أو في إحدى ممرات الجامعة، أو حتى أمام مسجد ما!

أو حديقة، ومن الممكن أن نلتقي في إحدى شوارع المدينة، وربما يكون ذلك الشارع الذي التقينا به لأول مرة!

عندما نلتقي، سننظر إلى بعضنا البعض في استغراب،

سأُصاب بالذهول أنا بسبب ما آلت إليه حالك، ربما ستكون بأفضل حال وربما بأسوأها..

وبكلتا الحالتين سأُصاب بالبغوت!

ستسألني عن حالي، سأجيبك بخير،

ولكنني لست بخير!

وسأخبرك من الآن إن التقينا يوماً وأخبرتك أنني بخير فلا تصدقني!

سيستمر لقاؤنا لبضعة دقائق ونحن مبغوتين،

لا أعرف كيف ستكون ردة فعلك نحوي!

ستدعوني لاحتساء القهوة، ثم ستعتذر متذكراً أنني لا أحتسي القهوة!

سأضحك..

ستقطف لي الياسمين من ذات الشجرة التي أهديتني منها زهرة بأول لقاء،

سأضحك مرة أخرى، ستسألني لماذا أضحك!

سأخبرك لسببين،

الأول، لا زالت شجرة الياسمين هذه على قيد الحياة،

والثاني، لا زلت تتذكر كل شيء عني، فتجيبني أنت بابتسامة حانية:

"لم أنسى لأتذكر!".

وتُكمل..

" لقد كنتِ تعيشين معي بكل تفاصيلكِ كل تلك السنوات! "

ثم ستأتي طفلة صغيرة تناديك "بابا"

..!

ستنظر إلي بارتباك ممسكاً يد الفتاة، ستتجمع العبرات في عينيّ،

ثم سأبتسم ابتسامة ساخرة قائلةً:

ما اسم الصغيرة؟!

لتجيبني أنت"وتين"!

كيف ذلك؟!

حينها سأعتذر أنا للرحيل، سيكون الوقت قد حان لأتفرد بنفسي

وأبكي، وأبكي، وأبكي..

سأمد يدي المرتجفتين لمصافحتك،

ستمد لي يديك..

سأرى السوار الذي أهديتك إياه في قديم الزمان!

سيزداد ألمي، سأختفي أنا، وتذهب مع طفلتك أنت،

سيكون حينها لقاء بعد بضعة أعوام من الآن!

وبعد ذلك اللقاء سيكون كل شيء قد انتهى حينها، ستذبل ياسميناتنا، وتتساقط أوراقنا،

لتهترئ مقاعدنا، وتشيخ ذكرياتنا، وتنتهي دربنا سوياً، لتذهب في طريقك، وأنا أبحث عن طريق أخرى!

ليكون حينها قد أضاف التاريخ إلى سجلاته قصة حب أخرى قد انتهت لأسباب مجهولة، أو..

لأسباب لا أحد يعلمها سوانا!

ممتلئ قلبي بالكثير يا عزيزي،

ممتلئ بأشياء لا أحبها، وأموراً لا أعرفها،

وأجهل طريق الخلاص منها!

ممتلئ بالكثير الذي أجهله ولا أدركه، ولا أتوق لمعرفته،

ممتلئ بأشياء غريبة، لا أحبها!

(١١)

عزيزي البعيد القريب،

مرحبا..

أعتذر،

سأكتب إليك

وهذه المرة

بشكل عامودي

حتى لا

تمل من

قراءة

رسائلي،

أو

..

لم

أجد

كلاماً

..

أعني..

لم أستطع

البوح،

كل شيء

مُتعِب

لن ألقي

اللوم عليك

بأنك تمل

مني،

ومن رسائلي،

بل

لأنني عاجزة

عن البوح

بما يدور بداخلي!

لقد مر وقت طويل، طويل جداً!

(١٢)

عزيزي البعيد القريب،

أنا لا أريدك أن تضعف، لا أريد أن أراك تنهار وتفقد رغبتك في البدء من جديد،

لا أريد أن أرى منك تقصيراً بحق ذاتك، انهض فقط!

تأكد وتيقَّن أنني أعلم جيداً مرارة ما تمر به، لا تظنني قد نسيت أو تناسيت، لا تظنني لا آبه لك ولحالك، لا تظنني بخير،

لستُ بخير صدقني، لستُ بحال أفضل من حالك!

إن هي إلا أيام معدودة وستمضي، لا تظن بأنك وحدك من تتألم، صدقني هناك من يشعر بك ويتألم لأجلك، هناك من يدعو لك ويهتم بأمرك عن بعد، يتحاشى لقاؤك ويتجنب نظراتك كي لا يؤذيك، تظن أنت أنه يؤذيك،

لكن لا يمكنك أن تبرر أفعاله بأنها أذى لقلبك

هناك ما لا يمكن تبريره، هناك ما يصعب شرحه، تهاوَن قليلاً!

لا يمكنك الحكم على ما ظهر، فكر فيما بطن!

أنا لا أراك، لا أحتضنك، لا أحدثك، لكنني أشعر بك،

كتبت بك، وقرأت لك!

و بكيت لأجلك!

لا أريد منك عتاباً ولوماً، أريد منك أن تكون بخير، لأجلك فقط!

(١٣)

عزيزي البعيد القريب،

إن أسوء ما قد يمر به الإنسان هو أن يقدم تنازلاته عن أشياء لم يعتد على المضي من دونها قط!

يُجبر أحياناً على أن يتخلى عن جزء من قلبه ليحيا،

لكن لا يجب أن يُسمى ذلك تخلياً، بل دفاعاً عمّا يملك!

لقد استكثرت علي الحياة أن ألتمس من عينيك أملاً يُيقيني على يقين بأن القادم أفضل، ليس أسوأ مما توقعت،

لقد أخطأت تقديري بشأن التحولات والتغيرات التي طرأت مؤخراً، ووجدت أن كل شيء كان أسوأ مما تصورت!

لم أكن أعلم أن هذه الفترة ستكون بهذه القسوة، لم أخال يوماً هذا الألم، لقد بذلت مجهوداً كبيراً ولم أحظى بنتيجة مُفرحة!

إحساس فظيع بالوحدة والإكتئاب، سئمت المحاولات المستميتة ممن هم حولي وتضرعاتهم!

كل شيء كان يزداد وفي تفاقم مستمر، حتى بِتُّ أجزم أن الليل صار يسكنني فلا يترك لي أثراً للنور!

لا أخفي عليك سراً يا عزيزي أنني كنت أنهار، ولا أنكر أنني ضعفت بعض الأحيان، كانت حالة من الضياع التام تسيطر علي، فأي تيه ذاك الذي كنت فيه لا أدري!

لقد وضعتني الأقدار في موقف صعب جداً لا أُحسد عليه، وقد عجزت عن تجاوزه بأقل الخسائر، لقد شعرت بالوحدة طوال الوقت، كما وأنني فقدت الكثير والكثير، فقدت شعوري بالأمان، فقدت كل ما كان يشعرني بأنني على قيد الحياة!

كان لدي الكثير من الأحلام، لكن لم أشعر بأن لدي رغبة بتحقيقها، أودعت الأمر للأيام، وتركت نفسي تحت سيطرة القدر، فتوقفت عن المقاومة ولم أعد من بيادق الحروب، كنت بحاجة للمزيد والمزيد مما لا أدركه ولا أجده، افتقدت للكثير والكثير مما لا أراه!

كنت أشعر وكأنني ثقب أسود وقد التهم كل هموم أهل الأرض!

أذكر في إحدى الليالي كم كنت حزينة، أذكر أنني بكيت كثيراً حتى تبللت وسادتي وتوسدت الدموع والتحفت الهموم والآلام،

أذكر أنني كنت أكبت الكثير من الأمور الغريبة التي لا أعرف عنها شيئاً،

أذكر أنني دعوت، دعوت بكل ضعفي ووهني وقلة حيلتي، حتى سرقني النوم، فكنت كلما شعرت بالحزن أويت إلى فراشي وجعلت النوم يسرقني!

(١٤)

عزيزي البعيد القريب،

ستمضي الليل تتأمل النجوم، ستظلّ تفكر بما مضى وبما هو آت، تغدق عليك روحك بكم هائل من الأفكار التي قد لا تستطيع تحملها لوحدك،

ستبذل مجهوداً لوحدك، ستصاب بالإحباط،

وتظن نفسك قد انتهيت، ثم..

ستتخلى السماء عن إحدى شهبها أمام ناظريك لتوقظك من غفوة تهيؤاتك لتخبرك بأنه أحياناً علينا أن نتخلى لنحيا، علينا أن نختار لأنفسنا الأفضل دائماً، وإن كان ذلك بالتنصل ممن يعنينا ويعني لنا الكثير، فأحيانا في غيابه نجد ما لم نكن نجده في بقائه!

ستستمر في التفكير بما حدث، ستشغلك أمور كثيرة وستقلق حيال ما آلت إليه حالك بسبب المستجدات الأخيرة، ستظن نفسك قد أصبحت فارغاً في جوفك ممتلئاً بما يؤذيك فقط، أو وكأنك ترى نفسك قد وُجدت بلا سبب وجيه يستدعي وجودك!

وقد ترى نفسك قد تعايشت مع فكرة الوجود المؤقت، فتتصرف بعقلانية قليلاً لتنتظر موعد الرحيل المؤبد،

ستمتلئ بالأفكار المتناقضة حيناً، و المتضاربة حيناً آخر!

في بداية الأمر سوف تخضع لمخاوفك وستحتلك ريبة مريعة، لتكتشف بعد كل ذلك أنك كنت مخطئاً!

بعد كل ذلك الإجهاد والتعب الذي واتاك من شعث أفكارك ستدرك أنك كنت مخطئاً، أخطأت تقديرك حين كنت تستسلم لما فُرض عليك،

حين كنت تسلم نفسك رهينة الأفكار والتهيؤات الكاذبة!

ستكتشف فيما بعد أنك أرهقت نفسك في أمور لم تكن تستحق أن تبذل ما بذلته من تفكير وتعب، ستدرك جيداً أنك انعطفت في المنعطف الخاطئ،

وبعد مرحلة معينة ستجد نفسك التي أضعتها بتهيؤاتك، ستستعيد رشدك لتواصل سيرك في الطريق الصحيحة.

سترى بعد ذلك أن كل شيء أصبح يسير كما تريد، سيتغير كل شيء للأفضل، لتدرك أن كل ما قاسيته لم يكن إلا وهم!

عزيزي..

يُفترض بنا أن نقول أن الحياة كانت أقوى منا وليس نحن الضعفاء، نحن نقدم كل ما لدينا، ونفعل كل ما بوسعنا فعله،

أما الأقدار فتتولى أمر ما تبقى!

لا يمكننا الجزم بأحوالنا، لا يمكننا الاقتناع بأن الأفضل سيأتي طالما هو لم يأتي بعد،

كل ما بوسعنا القيام به هو أن ننتظر كل يوم بيومه،

واليوم الذي ننتظره ولا يأتي، فمن المعتقد أنه كان يخبئ لنا شيئاً جميلاً، ولم يكن من نصيبنا نولهُ!

الطريق الشائكة عبورها صعب، والأصعب من ذلك هو عندما تعبرها متهالكاً متثاقلاً ممتلئاً بالهموم، فترى بعد كل تلك الأشواك زهرتك قد رحلت،

لكن بعد وقت قصير جداً سترى أن العوض من الله كان أفضل بمئات المرات مما تمنيته، سيُغنيك عن مرارة فقدانك، سيُعطيك فيُرضيك ليُنسيك،

سترى كم أنك كنت ساذجاً باعتقادك المتهور بأنك فشلت!

ستشعر بالسكينة، سيمتلئ قلبك بشيء من القبول والراحة، سوف تتعجب لسلام يعتريك، ولرضا عن كل شيء ولكل شيء،

سوف تعلم أن الله يحبك ويرعاك وهو لا ينسى عبداً من عباده ولا يتركه تائهاً إلا ويهديه رشداً من عنده، ويلقي في قلبه أمناً فيبث في روحه السلام والاطمئنان، إنه الله..

عزيزي،

لا شيء يستحق البذل والخسارة، لا شيء يستحق مجهوداً وتضحية، أو بمعنى أدق وأوسع، لا أحد يستحق المجازفة لأجله!

إن العمر بدوره يأتي مرة واحدة، فانتفع منه ببذلك مجهوداً لأمر يستحق ويعود عليك بالنفع!

فكر قبل أن تقرر، ولا تنسى..

إن لم ترى، لا تحكم!

(١٥)

عزيزي البعيد القريب،

كُن لطيفاً،

كأن تكون ذكرى جميلة يصعب نسيانها، أو أمنية يتمناها أحدهم رغم معرفته أنها صعبة المنال، ألا أن جمالها يزيد في القلب أملاً!

كُن لطيفاً وانتظر من الدنيا أن تشرح لك الأسباب..

كن لطيفاً وكأنك لا تعلم ما سبب أذية الآخرين لك، وكأنك لا ترى منهم سوى خيراً، دعك مما قاسيته منهم وفكر من جانب آخر ما الذي دفعهم لذلك، تجاوب مع نفسك قليلاً وخمّن،

هل للأمر علاقة بالقدر؟ نعم!

كل ما في الأمر أن الأقدار تصفعنا صفعة العمر أحياناً فنبقى حبيسين ألمنا والأوهام!

تجسدنا قوة فانية وكأننا نتكئ على وهم، لا نعلم بأي وقت يزول!

في معتقدك أن المعارك التي تقحمنا إياها الحياة هي أصعب من أن نجتازها، ومهما تحليّنا بالقوة فإن ضعفنا لا يمكن إخفاؤه، وكأنه كتب علينا أن نحيا مهزومين شبه منتصرين، منتصرين شبه مهزومين، في منتصف كل شيء،

لا النصر لنا، ولا الاستسلام بالهزيمة آت!

وتحاكي نفسك أيضاً بأن الدروب الشاقة مُحال أن تجتازها بمفردك، وهذا لظنّك أنك وحيداً غير قادر على تخطي أي أمر قد يعيق سيرك، فتستسلم!

أيهون عليك أن ترى مجهودك قد ذهب سدى وراءك، لتأتي عثرة ما تُعيق سيرك،

أترى..

مضى الكثير ولم يتبقى أمامك سوى القليل، فما المانع في أن تتخطاه بمفردك، وتثبت لنفسك بأنك غير آبه، وقادر على نيل ما تريد دون تأثير من أحد!

لماذا لا تكن أنت مصدر القوة لنفسك وللآخرين!

ترى الليل طويل، تداعبك أطيافه بألم تكتوي به مهجتك، فتُذعن وتسلّم نفسك للوهم من جديد، أنت لا تعرف كم أن الحياة تقسو أكثر من اللازم، لم تَذُق من مرارة التضحية شيء بعد، تتفكر في الكون من حولك فترى أنك مكبوت به، فتصبح أبسط أمنياتك هي التحرر من أغلال القدر!

لكنك وهل جربت أن تنام وأنت تتلوى من فرط الألم، هل جربت أن تبكي بحرقة على شيء ضاع من عمرك دون دراية عنك فلا تجد من يخفف عنك من وطأة حزنك، بل وجدت نفسك وحيداً!

لكن، هل وجدت نفسك دون صديق، دون حبيب، دون طريق، دون ملجأ تأوي إليه!

هل جربت أنت تتلوى من تكدّس الكلمات بداخلك، أو محاولة فاشلة في وصف ألمك ببضعة كلمات قد لا تُقرأ؟!

ولكنك لا تعرف معنى أن تضع حزنك في كلمة على ورقة ظنّاً من أنك ستُفرِغ منه شيئاً، أو محاولاتك المستميتة في التخلص من

الكلمات المكدسة في قعر قلبك تكويك، ثم تكتشف فجأة أن لا فائدة مما تقوم به سوى أنك تكتب وتكتب، وأن الأمر لا يزال في تفاقم!

من الصعب بل من المؤذي جداً أن تكتشف بعد وقت طويل من المعاناة "الكتابة"، أنك كنت في حرب مع أفكارك ولم يُسعفك الحظ لتنجو منها بأقل الخسائر، ثم وأنك تدون حزناً لن يقرأه أحد، ولكنه سيعود إليك مهما غبت عنه ليذكرك بك، ليذكرك من تكون، ومن كنت في ماضيك،

يعود إليك بنسمة هواء خريفيّ يجرّدك من فرح الربيع ومعه ورقة تَذكُر أنك وثّقت عليها إحدى بل جميع هزائمك يوماً، لترى أنها كانت محاولة من إحدى محاولاتك، وقد باءت بفشل ذريع!

قد تظن أن في تدوينك ترى انشراحاً، لتدرك لاحقاً أن ذلك كبتاً لك، يغيب ويغيب ليعود فيُذكرك بما كنت عليه، والنتيجة ذاتها لم تتغير معطياتها،

فتدرك أخيراً أن لا أحد سيشعر بما تشعر سواك أنت، ولا حتى الكتابة!

فلا أحد يعلم كيف لكاتب أن يفشل في وصف ألمه رغم مقدرته الرهيبة في وصف آلام من حوله، وادعاءه السلام والانشراح في حياته، لا أحد، حتماً لا أحد يعلم كيف يُهزم الكاتب، وكيف يتزلزل مدّعياً الثبات،

لكم ما ترون ظاهراً، أما ما بطن فلا شأن لأحد به!

(١٦)

عزيزي البعيد القريب،

اختر الأفضل لقلبك دائماً،

إن كان بعدك الناس راحة لقلبك فابتعد دون تفكير، إن كان في التخلي خير لك فتخلّى!

سترى في بداية الأمر أنك تلاحق سراباً، ولا تعلم ما النتيجة من فعلتك تلك، لكن في نهاية المطاف ستكتشف أنك كنت محقاً في إحدى قراراتك، وأقول لك: " إن أعظم ما ستشعر به، هو شعورك بمعرفة وعلم الله بما في جوف قلبك"!

لا شيء أعظم من أنّ الله يرى قاعك المظلم فيملؤه بالنور من بعد إيمانك واستسلامك له، وأن يدرك نواياك وغاياتك وما ترنو إليه، لا تقلق فلا شيء يضيع عنده!

الشعور بالفراغ في داخلك يجعلك ترى كل شيء من حولك فارغاً، ستؤذيك الأحداث لتتغير ردود أفعالك في كل مرة، رغم أن الحدث واحد لا يتغير، والموقف ذاته يمر بنا كل مرة، ألا أن نفوسنا ورغبتنا وقناعتنا هي التي تتغير، فتقلّ قدرتنا على تقبل ما جرى، ولهذا نرى أن ردود أفعالنا تتغير كل مرة مع ثبات الحدث!

تقف منتصباً أمام البشرية تتلقى طعناتك بثبات بينما أنت منهار من داخلك، التحديات المتكدسة في جوفك هي التي تنهار، إذ أنه لا يُسمع لها صوت، لكن الشعور بها مؤذٍ جداً.

تقضمك الأوهام نهماً بلا رحمة، هذا لأنك مُذعن مستسلم لها، جرّب أن تبحث عن السبب في نفسك، وليس عليك أن تلقي اللوم على من حولك كل مرة!

إليك يا عزيزي هذا:

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضْيِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونْ}

وحده الله يعلم بحاجتك، بضيقك، بشعورك المؤلم، وحده يراك تتألم، وحده يعلم كم أن لك صدر ضيّق وازداد ضيقاً بما تراه وتعيشه وتسمعه!

كُن على يقين تام بأن كل ذلك زائل، لن يدوم، وإن دام لن يطول، كُن بخير لأجلك، سيأتيك من لا يخذلك!

سيأتيك الله بأحد ترى به ما لم تراه بغيره، سيأتيك معه بأمان ليس بعده أمان، سيرسل لقلبك حباً لا نهاية له، وستكون هداياه عظيمة، ليس كما تتمنى، بل أعظم!

إنه الله، أعطه ليعطيك، سيعطيك ضعف ما تتمناه، بعد صبرك على ما ابتلاك، ولأنه يحبك ابتلاك!

(١٧)

عزيزي البعيد القريب،

يحدث أن تبقى لوحدك، دون كتف تستند عليه!

واليد التي كانت تربت على كتفك بُترت بفعل سيف الوقت،

يحدث أن يقطعك الوقت ويقضى عليه بعد أن توشك على قطعه!

تستمرّ في الحديث مع نفسك، أكان الأمر يستحق كل هذا التعب؟!

هل كان ذلك المجهود كافياً أم أن الأمر يتطلب المزيد؟!

تتساءل وتبحث في نفسك عن إجابة شافية لعلك تفرّ من مخاوفك،

يعتريك هاجس غريب لا تعرف مصدره ولا تدري كيف تتسنى له فرصة النيل منك، بينما أنت تفشل في التخلص منه،

إنها معادلة يصعب حلها!

كيف لأحد ما أن يعتلي القمة بينما هو منهار تماماً في قاع مجهول، هكذا يراه الناس، بينما هو يرى نفسه عكس ما يظهر لغيره!

في معتقدهم أنك نجحت، وأن الناجحين قد نجوا، لكنهم لا يعرفون ما الذي يكمن خلف ابتسامة النصر والنجاح!

بعض الكلمات يا عزيزي هي شيفرة، ترمي إلى مشاعر مكبوتة لا يودّ كاتبها إظهارها، قد يفهمها البعض ويجهلها البعض الآخر، ولكن المعنى يكمن في قلب الكاتب ولا أحد سيدرك ما يعني.

وبعض الدموع هي هي ترجمة لكلام لم يُقال وعجزت الأفواه عن نطقه!

هناك ما هو مرهق، ومتعب، ومؤذي، هناك ما لا يرحم!

لكم كنت أودّ أن أبكي، أن أصفع الحظ، أن ألوذ بنفسي منّي، أن أهرب..!

لقد رسمت بمخيلتي مشهداً لهروبي يوماً!

لكنها كانت محاولة فاشلة أيضاً..

حاولت أن أكتب لكن في ذلك اليوم كُسر قلمي ولم أدرك السبب في ذلك، أعتقد أنه الحظ مرة أخرى!

كنت أراقب النجوم في تلك الليلة وشعرت حينها أنني أضعت القمر، ومنذ ذلك اليوم وأنا لا زلت أبحث عنه، لم أجده حتى الآن!

أنتَ، نعم أنت، عجباً ألا زلت تقرأ حتى الآن، كيف لم تشعر بالملل؟!

كنت دوماً تخبرني أن ما أقوم به لن يفيدني وأنني لا أبلي حسناً!

والآن ها أنت تقرأ لي دون كلل!

أتعلم؟!

لقد مررت بحيّكم منذ بضعة أسابيع على مدار ثلاثة أيام متتالية، رأيت آثار خيبتك تملأ المكان، حينها عرفت كم كنت ساذجة!

أخبرني أبي أنه سيجلب لي شجرة ياسمين لكنني رفضت، لقد احتفظت بياسمينة قطفتها لي ذات مرة، فأنبتت في قلبي أشجاراً!

أتنازل الآن عن كوني الشخص المثالي، لقد عرفت أنني أخطأت بحق نفسي كثيراً، لقد أقحمت روحي بما لا تقوى عليه،

ثم سأعتذر لك، فالآن وليست المرة الأولى التي أدرك بها خطأي الذي أسميناه خطئاً وهو ليس كذلك!

منذ شهر واحد، جفت محبرتي فعاهدت نفسي على التوقف، لكن فعلياً لا أعلم عن ماذا؟

فقررت أن أتوقف عن التفكير في التوقف عن القيام بما أنوي التوقف عنه وأستمر!

(١٨)

عزيزي البعيد القريب،

أتعلم، إن أسوء ما قد يمر به الإنسان هو صبره على أمور تستنزف منه جلّ طاقته دون رد مقابل له، أن يمضي عمره يحارب لأجل وهم فقط، بلا نتيجة!

فمن المؤسف أن تمضي معظم وقتك في البحث عن أجوبة لأسئلة راودتك ثم بعدما لقيت الإجابة، شعرت بعدم رغبتك بذلك، تضمحل تساؤلاتك رغم كثرة التفسيرات، ألا أنك لم تعد تشعر برغبة لأن تحصل على شيء!

في لحظة ما تشعر بأنك قد تنازلت عن كل أحلامك، ليس لأنك سهل التخلي، بل لأن دوافعك باتت تنحصر بين جهادك في إكمال يومك، والتخلص من أي شيء قد ينغص مروره عليك، فقط ستكتفي بمروره بسلام، بسلام فقط!

ستشعر وكأنك تلاحق سراباً، لا جدوى مما تقوم به، تشعر وكأنك تمسك غيماً، تمسكه ولا تمسكه، يتخلى عنك وربما أنت من تفعل!

تتذكر نفسك في قديم الزمان كيف كنت تتعايش مع فكرة أن لكل شيء حل، والقادم أفضل، تقارنها مع ذاتك في الوقت الحاضر، تتعجب كيف كنت بذلك الصبر والروح المقاومة؟!

أتراها الروح أرهقت، أم الرغبة..

هل قتلت رغبتك بنفسك أم الأيام من قامت بالأمر؟

لا يمكنك قمع نفسك في أمور ليس لك القدرة على تجاوزها أو التخلص منها، كن رحيماً مع ذاتك ولا تشغل نفسك في أمر قد صعب عليك حله!

أتعلم يا عزيزي؟!

إن أكثر الأشخاص تعاسة في هذه العالم هم من يتظاهرون بالسعادة وذلك ما يتضح في تصرفاتهم وكلامهم،

وأولئك الذين ينشرون الرسائل الإيجابية هم أكثر الأشخاص حزناً، فلا يخدعك قولهم!

لكن وبالرغم من ذلك يمكنهم أن يكونوا سعداء بلا تزييف، الأمر ليس صعباً، ليس صعباً!

لا يمكنك أن تمنع مشاعرك من التحرر من جوفك،

حزن، خوف، حب، أمل، سعادة..

جميعها مشاعر لا يمكن كبتها، كما وأنه لا يمكن التظاهر بأحدها، إما أن تكون نابعة من جوف قلبك، وإما لا،

والأمر برمته بين يديك!

وإن كنت حازماً في اتخاذ القرار ستجد أن لا صعوبة في ذلك، فكل ما في الأمر أنه يحتاج لبعض من الشجاعة!

خذني إليك..

أشرقت الشمس مؤذنة بولادة يوم جديد، وألقت بخيوطها الذهبية على بيوت القرية التي تتوزع بشكل عفوي على إحدى الجبال الأزلية، ظهر نور خافت وارتسم على وجهي يداعبني مطالباً استيقاظي!

تململت في نشاط و نهضت من فراشي لأداء روتيني اليومي الذي اعتده واعتادني ولم يسأم أحدنا من الآخر!

لي صديقة في الجامعة تدعى كريستين، لا أعرف حتى الآن ما هي طبيعة العلاقة التي تجمعني بها، لكن كل ما أعرفه أنني أحبها أكثر من نفسي!

أمي تحبني كثيراً ودائماً ما تخبرني بأن أحافظ على نفسي لكن لم أفهم ما الذي تعنيه يوماً، لذا كنت كل مرة أستمع لنصائحها في إذعان، دون إدراك غاياتها!

نشأت في عائلة متحفظة جداً، وليس من عاداتها أن تنشأ فيها فتيات متحررات فكرياً وفعلياً!

كريستين دائماً ما ترسل لي الرسائل عبر البريد الإلكتروني لتوقظني، عن طريق إرسال رسالة واحدة، فأشعر بها وكأنها سحراً يلقى على قلبي فينتشي!

هذا الصباح لم يدأب أحد لإيقاظي، أو بمعنى آخر، لم تأتي رسائلها لترسم لي يوماً جميلاً أراه منذ أن يبدأ الصباح!

شعرت بالاسغراب في بداية الأمر لكن بعدها تجاهلت قليلاً، ثم تذكرت أنني تأخرت وعلي أن أذهب، فقد يكون عمر بانتظاري، وكذلك كريستين وأيلون صديقها!

****

عمر.. لقد نسيت أن أعرفكم به..

حسناً، عمر هو جزء عميق في أعمق جزء من روحي، أعرفه منذ ثلاثة أعوام، منذ المرة الأولى التي دخلت بها جامعتي!

التقينا في مقهى الجامعة حينها طلب مني ألا أدفع ثمن قهوتي، ومن ثم دعاني للجلوس والتريث قليلاً من عناء المحاضرات، لم يكن تعارفنا ذلك الأمر العظيم، وليس شيئاً جديداً، بل كانت صدفة ظننتها عابرة، ألا أنني عبرت معها إلى قلبه!

****

سرحت شعري وارتديت ملابسي، حملت معطفي بيدي وبضعة كتب في يدي الأخرى، وحقيبة ظهر أحملها معي أنى ذهبت،

بدأت الشكوك تتسلل إلى أعماقي، فكرت ما هو سبب هذا الهدوء، أمي لم تأتي إلي صباحاً، كريستين لم ترسل لي اليوم!

ما الأمر؟!

خرجت من غرفتي باحثة عن أمي، لقيتها فابتمست في وجهي ابتسامة شاحبة،

لمست في نظراتها تساؤلات عديدة، شعرت باستياء ينبعث منها نحوي، تساءلت في نفسي عن السبب في ذلك، وخشيت أن تكون قد علمت بأمر عمر، أعرفه منذ ثلاثة أعوام، وليس لأحد علم بأمره سوى كريستين وأيلون، لا أعلم كيف ستكون ردة فعلها إن علمت بما أخفيه، فمثل هذه القصص قد لا تعيش ولا تكتمل في مجتمعاتنا، وهذا ما دفعني لأن أخفي أمر علاقتي بعمر، خشية أن يتسبب ذلك بمكروه لأحد ما!

سألتها بحذر شديد وبصوت خافت:

- ما بكِ؟

أجابتني بكل هدوء وروية، وعيناها محمرتان تنذران بسيالة من الدموع المتضرعة:

- أنا من يجب أن يسألكِ، هل جننتِ، أتريدين أن تلطخي سمعتنا بين الأقارب؟

أيعقل أن تفعلي هذا بنا!

لم أحرك ساكناً بعد إجابتها تلك!

خفضت رأسي للأسفل ولم أنبس ببنت شفة، لم أعد أستوعب ما جرى، ما الذي كانت تقوله، تداخلت أفكاري ببعضها البعض، كيف عرفت؟ من غيرها على علم بالأمر؟

احتلتني غيمة من التساؤلات وغرقت ببحر من الأجوبة، أبحث عن سترة ما، لعلي أجد إجابة شافية!

تركتني وسارت بكل هدوء، نظرت إليها وقلبي يرتعش،

أين هي كريستين، أين أنت يا عمر،

أمي..؟

خرجت مسرعة، فاستوقفتني كلمتها الأخيرة:

- إن لم تنهي ما بدأتِ، سأتصرف أنا!

سمعت ما سمعته وخرجت، لم أدرك وجهتي، ولم أعرف حتى هذه اللحظة كيف وصلت للجامعة،

بحثت عنها كثيراً، لم أجد لها أثراً، وكذلك عمر!

لم أشعر بهذا الضياع من قبل، لم أشعر بمثل هذا الشعور إلا اليوم.. أمسكت هاتفي وحاولت الاتصال بكريستين مراراً ولم تجبني، عمر كان هاتفه مغلقاً،

ما الذي يجري؟!

توجهت للمقهى المكان المعتاد الذي نلتقي به يومياً، سألت النادل فأخبرني بأنه لم يرى أحداً، سوى أيلون الذي جاء غادر مسرعاً قبل وصولي ببضعة ثوانٍ!

اتصلت به فلم يجب هو الآخر!

جلست على إحدى المقاعد التي تتوزع في الحديقة المجاورة للمقهى، أطلقت العنان لدموعي، فلقيتها تنهمر دون إذن مني،

بكيت كثيراً، شعرت بأنني أخرجت كماً هائلاً من الكلام الغير مفهوم الذي ترجمته دموعي!

مضت الساعات طويلة، لم أعرف لماذا بكيت، أو ما هو السبب في ذلك تحديداً، فقد تعددت الأسباب،

لم يكن الوقت مناسباً لتختفي كريستين، وليغلق عمر هاتفه!

لم يكن الوقت مناسباً لأن يختفي الجميع هكذا، وليس هو الوقت المناسب لأن تعلم أمي بما ما أخفيه عنها، لم أستعد لهذه اللحظة بعد، لم أفكر بمثل هذا اليوم من قبل ولم أكن على أهبة الاستعداد لأن أتلقى كل هذا دفعة واحدة!

ظهرت كريستين بغتة، كنت أشعر بالإعياء، وخلت نفسي أتوهم رؤيتها، كانت تقترب مني ببطئ وحذر شديد، وكأنها لا تريد أن تراني، لا تريد إخباري، لا تريد مواجهتي!

لكن.. ما الذي جرى؟!

جلست إلى جانبي، واتكأت على كتفها دون تردد..

- أين كنتِ يا كريستين، لماذا اختفيتِ هكذا؟ لقد حدث الكثير.. الكثير الذي يحتاج وجودكِ!
- ليس علي إخبارك، لكن.. وعلى أي حال فسوف تعلمين..!

نهضت متوجسة، بعد كلماتها تلك:

- ماذا تقصدين... أيلون.. عمر.. هل حدث لأحدهم مكروه، أخبريني..؟
- لقد ذهب أيلون لإخبار عائلة عمر، أما أنا فأتيت لإخبارك، تركَ لكِ هذه الورقة معي قبل رحيله!
- م..اذا تقصدين، ماذا تعنين برحيله؟

ماذا حدث، أين هو عمر، كيف عساكِ تقولين هذه!

- وتين، أنا أعلم ما الذي كان يعنيه لكِ عمر، لكنه رحل، رحل.. أصيب بكسر خطير في جمجمة رأسه إثر حادث عنيف صباح هذا اليوم..

انهرت على الأرض باكية، كيف يرحل بتلك السهولة، من المفترض أن يبقى، من المفترض أن يبقى معي كيف، كيف؟!

أيقظتني كريستين من نوبة بكائي، أمسكت بيدي، مسحت بيديها وجهي الغارق بالدموع، وقالت:

- ليس الوقت المناسب للبكاء، علينا الذهاب!

إلى أين، ومتى، وكيف، احترت وشعرت بأن الكون كله أصبح ضدي، أصبحت كل المعالم أمام عيني سوداء!

في المستشفى، لا أعرف سبب مجيئي إلى هنا، أو بمعنى آخر.. لم أرسم بمخيلتي مشهداً كهذا، لم أخال نفسي قد آتي إلى هنا لسبب كهذا.

أصوات تملأ المكان، وقفت أتأمل البهو، أبحث عن ضالتي، أتساءل في نفسي، أيعقل أنني في حلم!

في غرفة كبيرة، أسرّة كثيرة، مكان بارد ومظلم، واسع وممتلئ بالكثير من الأحلام التي غادرت أمل التحقيق، هنا في هذا الغرفة حيث تتجمد الأحلام وللأبد، حيث ينتهي كل شيء، كل شيء!

وشخص واحد فقط أعرفه، اتخذوا له زاوية يتوضع بها، جرتني قدماي نحوه، وقفت أبكيه، أبكيه بدموع شوق وعتاب، أناجيه، أطالبه بالعودة!

كيف ترحل يا عمر، كيف؟!

لم يحن الوقت بعد، لم تنتهي طريقنا بعد، لا زال لدي الكثير الذي أود مشاركتك إياه،

لا زلت بحاجة للمزيد من الوقت بقربك، كيف ترحل، أخبرني كيف!

أبعدتني كريستين وأخرجتني من الغرفة، ولم أبدي ردة فعل، استسلمت لها، أعادتني للمنزل وكان الوقت متأخراً، قرعت جرس الباب فاستقبلتنا أمي بأسئلتها،

شهقت من رؤيتها هيئتي التي كانت أشبه بالأموات الأحياء!

أجبتها بكل حرقة:

- لقد رحل، لن يعود بعد الآن..

لن يسبب لكم أية إحراج، لن نلطخ سمعتكم بين الأقارب، لن نؤذيكم بشيء،

لقد رحل، رحل فقط..

وأنا هنا، تركني ورحل!

لا أعتقد أنها فهمت معنى ما قلت، المعنى الذي يكمن في داخلي، لكنها أدركت تماماً ما الذي أقصده برحل، لم يعد هناك أي عائق أمام مخططاتهم.

. ودعتنا كريستين موصية أمي بالاعتناء بي وموضحة لها ما الذي جرى،

"ومنذ خمسة أعوام حتى الآن، ليس لي أصدقاء سوى طبيب نفسي يدعى سامر، أقص عليه ذات الحكاية كل يوم،

يستمع إلي دون كلل، وأروى له بلا يأس! ".

عزيزي البعيد القريب،

أخيراً وليس آخراً..

كل ما في الأمر أن شيئاً ما يسير عكس ما نريد، قد لا تتحقق أمانينا، قد لا ننتصر ولا يكون النصر حليفنا في إحدى المعارك، لكنها لن تكون المعركة الأخيرة، وبإمكاننا الفوز إن أردنا، لا يمكننا التوقف، وإن توقفنا لا يجب أن يطول وقوفنا!

إلام تنظر، ماذا تنتظر، فلن يأتي أحد لينتشلك، لن يسعفك الوقت بل أنت تهدره دون علمك ظناً منك أنه سيطول، ولكن في الحقيقة هو يمضي أما أنت راكد، كن بخير..

أعلم أنك بدأت تشعر بالقلق، تريد ان تهرب إلى بر الأمان، تريد أن تنحو، أن تقنع نفسك أنك لا زلت بخير وأنت على عكس ذلك، ربما أنت تحاول أن تتحلى بالصبر، ألا تكلف نفسك عناء التفكير في الغد!

أن تعي ما الذي يجري فهذا يعني أنك قادر على التحمل، تمر بك لحظات تجهل بها وجهتك، تمهل قليلاً ومهد لنفسك الخطوات، امضي ولا تكترث، إن هي إلا أيام ستنتهي.

ستختفي تجاعيد الزمن المرتسمة على وجهك، شحوب عينيك، تحولك الغير ملحوظ، نومك المتأخر، استيقاظك في منتصف الليل خائفاً من حلم أرعبك، والمسؤولية التي تحملها على عاتقك منذ زمن، ستختفي كل الأمور التي ترهقك وتمزق نياط قلبك، ستزهر روحك قريباً، وهذا وعد مني، فابتسم!

خاتمة

عزيزي البعيد القريب،

أنا لم أمُت، لكنني لم أحيا!

أخبرني أحدهم يوماً بأن لا أعوّد نفسي على الدفء، لأنه قد يشتد البرد يوماً، فيؤذي قلبي صقيعه!

لكن برود الأيام وردود الأفعال لها صقيع مؤذٍ جداً.

انقلبت الموازين، تدهورت الأحوال وازدادت الأمور تعقيداً،

أكتب إليك أشكوك ضعفي ووهني وقلة حيلتي!

أشكوك سوء حظي،

أشكوك ليلي القاتم وأيامي الباهتة!

فاليوم..

"اليوم.. وبلا قيود.. حرّة طليقة!

سأسيرُ على الطرقات، سأسابق العربات

وفي مخيّلتي سأرسم مشهداً للحريّة..

سأنظر للجبال وأعلن للأطيار استسلامي،

سأغني وأرنّم..

و للأفق البعيد، سأرسل سلامي

سأقول اليوم وداعاً لأحلامي

سأسير بلا نعلين

اليوم، سيسجل التاريخ اسمي.

"كانت فتاة بنصف عقل"!

سيُضاف اسمي للائحة المجانين، وتحت المطر، سأركض!

سأصرخ اليوم، لقد هُزمت، سأرتدي أجمل فساتيني، سأبدو بأبهى حلّة،

وهل نحتفل فقط بنجاحاتنا، إنها النهاية

ولها أروع احتفاء!

سأسير ببطئ قليلاً، عارية القدمين

مجرّدة من المشاعر، بلا أحاسيس مُرهِقة،

بلا أفكار مُتعِبة، مفرغة من أي حزن قاتم..

إنها مرحلة اللاشعور باللاشيء!

آخر همومي صخب الذّكريات، لا أكترث لليالي السهاد الماضية،

سأمضي بلا هدف، بلا أحلام،

سأسير اليوم على الطرقات، سأقول اليوم وداعاً للطموحات، سأغني الأغنيات، سأتمرّد على الحدود..

وداعاً لاحترام القوانين..

سأركض حرّة وبلا قيود

سأنظّمُ لعائلة الأشجار، تحييني الأمطار

تنعشني الشمس، أتجدد كل خريف، أتجرد من كل همّ عتيق، وأحيا كل ربيع!

سأمزق أوراقي القديمة، سألقيها على الطرقات بفرح.. بسرور

كأنني أطير.. كأنني غيم.. كأنني أمتطي سحب الحرية!

سأحرق الذكريات، سأبعثر رمادها بشتات،

سأرقص!

على ألحان الأطيار وأنغام المطر،

وعلى أعتاب الطرقات سأخطّ ذكرى أحلامي التي بدّدها الزمن،

سأُحيي ذكراها ليُخلّد ضريحها في مزارات الأمل الكاذب،

سأُنعي رحيلها، ومن ثم

سأشيع ذكراها

وبعدها..

سأصرخ بكل ما أوتيت من قوة

سأبكي، سأنسى!

ما كانت الحياة في صفّي يوماً، حسناً، لن أحتاج لأحد ما دمتُ أنا

بجانبي!

سأوظب فستاني، سأرتدي الكعب العالي،

سألجأ لمساحيق التجميل..

سأقطف نجمة، سأضعها على شعري، سأظفر ظفيرة، سأزينها بالنجوم!

سأسرق القمر..

لا شأن لأحد بي، عانيت من الظلام بسببكم لأعوام طويلة،

والآن..

قولوا وداعاً للنور

حان دوري

سأسرق القمر!

سأستمر بالسير وأنا أرقص

إلى حيث المجهول، إلى الفراغ، إلى اللاشيء، وبلا شيء!

سأبدأ من جديد، سأكون الملكة.. لا، انتهيت!

انتهت كل حكاية جميلة، تلاشت الأحلام الوردية،

رحل القطار وفاتني، أضعت المحطة، أخطأت الطريق!

هرب القمر، اختفت النجوم، وعاد الظلام!

هل هي لعنة؟!

توقف المطر، انزاح الغمام، تغير لون السماء.. مال نحو الصفاء!

قبل قليل كانت تبكي!

أتراه حزنها انتهى؟!

لكن..

ماذا عن حزني، متى عساه ينتهي؟!

يا إلهي، اتسخ فستاني، أسير على الرصيف

أغني..

سأغني وأغني..

دعني وشأني، أردد دعني وشأني

أيها الطيف، دعني وشأني

كُن بعيداً عن قلبي وعني، بلا أحلام، بلا أماني،

والعمر يمضي، ونحن لا نمضي

راكدون.. نحن راكدون، لا زلنا صغار

متى نكبر، نريد أن نكبر،

حتى وإن واتانا الكبر، سيكون الوقت قد فات، سنكون في عِداد الأموات،

سنكون رُفات، فلا شيء يبقى!

ستون يوماً مضت، وأنا رحلت،

كنت أكتب كي لا ينساني الناس.. والآن أنا وليدة النسيان، أنا رحلت!

واستقام الخط، معلناً عن وفاة أحدهم، ليُضاف اسماً جديداً في عِداد

الموتى، ليكون كل شيء قد انتهى،

وسأقول بعد كل ذلك وداعاً! "

لا خاتمة بعدك، ولا بداية قبلك،

كنت بداية ونهاية لكل شيء جميل،

آمل أنك أصبحت تتفهم وتعي تماماً ما كنت أعني، آمل أن تدرك مقصدي وغايتي،

والآن حان الوقت كي أختفي، وليعود كل شيء إلى نصابه، ليعود كل شيء لسابق عهده، وكأن شيئاً لم يكن،

اعتنِ بنفسك أنت، وأنا سأكون بخير،

وإن حالفنا الحظ يوماً فسوف نلتقي، لنا حديث مطول إن حدث والتقينا، لنا أن نتحدث، لنا أن نبكي، وإلى أن يحين ذلك، لنا أن نشتاق، لنا أن نحنّ وننتظر!

ولنا أن نكتب لبعضنا البعض رسائل مشفّرة، لا يفهمها سوانا!

يا عالم أشوفه لو صدفة يوم..

لا يجيني نوم، ولا بنساه..

وفرصة رجوعنا بتنقص أكيد، وهو بعيد، وفين القاه!

وفكرة أكمل وأنا مش معاه..

ما بتجيش في بالي كأن الحياة..

خلاص واقفة عنده ورافضة أن أعيش..

وبفضل مكاني وبستناه..!

هكذا غنّت أصالة، وهكذا انتهت رسائل مشفّرة!

مُتناقِضة بشكل لا يُصدق!

سيدرا عجاج

النهاية...